الولايات المتحدة وسبل مواجهة 'الخطر' الإيراني

13-8-2005

يبدو أن تنبؤات "كاجان" قد تحققت ولكن بطريقة عكسية، فقد كان المستفيد الأكبر من الاحتلال الأمريكي والفوضى التي ترتبت على هذا الاحتلال هو إيران، التي تعد المنافس الرئيسي للولايات المتحدة في السيطرة على منطقة الخليج، باعتبارها أغنى مناطق العالم بالاحتياطيات النفطية. وكما علق المؤرخ الدبلوماسي "جابريل كولكو"، فإن قيام الولايات المتحدة بتدمير العراق الموحد الذي كان يحكمه صدام، أزال الحاجز الرئيسي الذي كان يمنع إيران من تحقيق الانتصار الكامل في المنطقة.

بقلم عبدالله صالح

في عام 1998، توقع "روبرت كاجان"، أحد كبار المنظرين الأمريكيين، أن يؤدي التدخل الأمريكي في العراق إلى العديد من التطورات الإستراتيجية الإيجابية في منطقة الشرق الأوسط، والتي تخدم في النهاية المصالح الأمريكية. والآن، وبعد مرور عامين على الاحتلال الأمريكي للعراق، يبدو أن تنبؤات "كاجان" قد تحققت ولكن بطريقة عكسية، فقد كان المستفيد الأكبر من الاحتلال الأمريكي والفوضى التي ترتبت على هذا الاحتلال هو إيران، التي تعد المنافس الرئيسي للولايات المتحدة في السيطرة على منطقة الخليج، باعتبارها أغنى مناطق العالم بالاحتياطيات النفطية. وكما علق المؤرخ الدبلوماسي "جابريل كولكو"، فإن قيام الولايات المتحدة بتدمير العراق الموحد الذي كان يحكمه صدام، أزال الحاجز الرئيسي الذي كان يمنع إيران من تحقيق الانتصار الكامل في المنطقة.

في بداية الغزو الأمريكي للعراق، كانت تطورات الأحداث تسير في اتجاه مختلف تماماً، فبعد سقوط بغداد وهروب صدام، بدأ النظام الإيراني "يصاب بالهلع مما يحدث في العراق، مما دفعه إلى أن يقرر فجأة الدخول في مفاوضات مع دول الترويكا الأوربية، بريطانيا، وفرنسا، وألمانيا، بشأن إنهاء البرنامج النووي الإيراني".

وقد دفع الانتصار الأولي لواشنطن في العراق المسئولين الأمريكيين إلى عدم التجاوب مع الشروط المبدئية لعملية التفاوض الأوربية مع إيران، وهو ما أعطى الفرصة للقيادة الإيرانية للجوء إلى المناورة والعمل على تجميد المفاوضات مع الجانب الأوربي، لاسيما في ظل اتجاه إدارة بوش للضغط العسكري على نظام طهران، والتهديد بتوجيه ضربة وقائية ضدها. كما أن تصاعد المقاومة العراقية ضد القوات الأمريكية بعد شهور قليلة من سقوط بغداد، على نحو لم تتوقعه الإدارة الأمريكية، وفشلها في السيطرة على مجريات الأمور في معظم المدن العراقية، وفي بغداد نفسها، كل هذا أدى إلى تراجع الإدارة الأمريكية عن خطة غزو إيران، وتركيز جهودها على كيفية الخروج من المأزق العراقي.

ومن جانب آخر، فإن الدمار المتزايد الذي أحدثه الاحتلال الأمريكي في العراق، أدى إلى تصاعد حدة الغضب لدى الشعب الإيراني تجاه الولايات المتحدة، وتنامي الاتجاهات المتشددة لديه، وهو ما ظهر بوضوح بعد عامين على الغزو الأمريكي، في انتخابه للرئيس أحمدي نجاد، المعروف باتجاهاته المحافظة، فضلا عن إصراره على مواصلة البرنامج النووي الإيراني، ولم يصوت الشعب لمنافسه هاشمي رفسنجاني، الذي كان يدعو لتحسين العلاقات مع الولايات المتحدة والغرب. أي أن الغزو الأمريكي للعراق لم يؤد إلى ردع إيران وإنهاء برنامجها النووي، بل على العكس، أدى إلى تصاعد الاتجاهات اليمينية لدى الرأي العام، وتزايد دور القوى المحافظة في السياسة الإيرانية.

كذلك، فقد أدى الغزو الأمريكي للعراق إلى توطد العلاقات الإيرانية مع الصين، وبصفة خاصة في المجال النفطي، حيث تعد إيران ثاني مستهلك للنفط في العالم بعد الولايات المتحدة، وكانت قد أقامت عدداً من المشروعات النفطية في العراق قبل الاحتلال الأمريكي، ولكن خضوع العراق للعقوبات الدولية، ثم احتلالها من جانب الولايات المتحدة، اضطر الصين للبحث عن مصادر جديدة للنفط والغاز الطبيعي، وتمكنت بالفعل من إبرام عقود طويلة الأجل مع العديد من الدول النفطية، كان أهمها الاتفاق الذي أبرمته لاستيراد النفط الإيراني والذي بلغت قيمته 70 بليون دولار.

ولم تقتصر العلاقات الإيرانية الصينية على مجال النفط، وإنما امتدت إلى العديد من المجالات الاقتصادية، من بينها عدة مشاريع للطرق والمواصلات، أهمها قيام الصين بإنشاء المرحلة الأولى من نفق طهران بقيمة 836 مليون دولار، فضلاً عن التعاون في مجال تصنيع السيارات، وقد توطدت العلاقات السياسية بين البلدين خلال العام الماضي، لاسيما بعد دعوة الصين لمشاركة إيران في اجتماعات "منظمة شنغهاي للتعاون" بصفة مراقب، وهي المنظمة التي تضم كلا من الصين، وروسيا، وأوزبكستان، وطاجكستان، وكازاخستان وقيرغيزستان.

ومن جانب آخر، فقد قامت بكين بمساعدة إيران في مجال التكنولوجيا النووية، والصواريخ بعيدة المدى، والتي تتيح لها استهداف السفن البحرية للولايات المتحدة، ونقاط تمركز قواتها في الشرق الأوسط، فضلاً عن إمكانية حصار مضيق هرمز، الذي تمر من خلاله نحو ثلث تجارة النفط العالمية. وبمساعدة بكين وموسكو، فإن طهران لن تكون هدفاً سهلاً للقوات الأمريكية.

تطور العلاقات الإيرانية الصينية أجهض محاولات الولايات المتحدة وأوروبا لعزل طهران وإجبارها على التخلي عن برنامجها النووي، وقد أكد وزير الخارجية الصيني "لي زاوشينج" خلال لقائه مع الرئيس الإيراني محمد خاتمي في نوفمبر من العام الماضي أن بكين ستعارض أي محاولة أمريكية لفرض عقوبات على إيران في مجلس الأمن.

تزايد نفوذ القوى الشيعية داخل العراق في أعقاب سقوط نظام صدام، مهد الطريق لتدفق الكثير من الحجاج الإيرانيين إلى العراق، كما بدأت المئات من الشاحنات تتدفق يوميا عبر الحدود حاملة المنتجات الإيرانية إلى العراق، وتزايدت المعاملات الاقتصادية بين البلدين مع انتقال السيادة للحكومة العراقية، خاصة أن إدارة بوش كان من الصعب عليها التدخل في المسائل التي أصبحت من اختصاص السيادة العراقية، ووصل تطور العلاقات بين البلدين إلى حد إبرام اتفاقية للدفاع المتبادل، وإن كانت قد ألغيت بناء على ضغط من الولايات المتحدة، ولكن

الحكومة العراقية أكدت أنها لن تسمح باستخدام أراضيها في أيّ هجوم على إيران، في إشارة إلى الولايات المتحدة .

"فيليب جيرالدي" الرئيس السابق لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية أكد لصحيفة لواشنطن بوست أن البنتاجون، وبناء على توجيهات من نائب الرئيس "ديك شيني"، بدأ في تجهيز خطة طوارئ للرد على احتمالات تعرض الولايات المتحدة لهجوم مماثل لما تعرضت له في 11 سبتمبر 2001، وأن هذه الخطة تتضمن هجوما جويا واسع النطاق على إيران تستخدم فيه كل من الأسلحة التقليدية والأسلحة النووية التكتيكية، دون النظر إلى تورط إيران في هذا الهجوم من عدمه.

الإدارة الأمريكية لديها اعتقاد قوي بأن النظام الإيراني يشكل خطراً محدقاً على مصالحها، لا سيما وأن تقديرات الخبراء تشير إلى أن إيران يمكن أن تصبح قوة نووية خلال سنوات قليلة، ومن ثم فإن على الولايات المتحدة قد تبادر بضربة وقائية ضد النظام الإيراني أو ضد المنشآت النووية الإيرانية. وبطبيعة الحال فإنه في ظل الظروف المعقدة التي تواجهها القوات الأمريكية في العراق، فإن المغامرة بشن هجوم عسكري على إيران لن تكون محمودة العواقب، ولهذا فإن هذه الخطوة مؤجلة إلى مرحلة لاحقة.

أما عن إمكانية شن هجوم على المنشآت النووية الإيرانية، فإن المشكلة أن معظم المرافق النووية الإيرانية تقع في مناطق آهلة بالسكان، وتحت سطح الأرض بعمق بعيد، مما يجعلها بعيدة عن متناول الأسلحة التقليدية، كما أن استخدم الخيار النووي سوف يتمخض عنه قدر هائل من الفوضى والدمار.

بعد إفلات العالم من احتمالات حدوث مواجهة نووية خلال الحرب الباردة بين القطبين الكبيرين، وفي ظل الدمار الهائل الذي تعرضت له هيروشيما وناجازاكي جراء الاستخدام الأمريكي للقنبلة النووية، والذي تحتفل اليابان الآن بمرور ستة عقود على نشوبه، فإنه يبدو من غير المحتمل أن تندلع مواجهة نووية بسبب نزاع بين قوة إقليمية مثل إيران وقطب عالمي يسعى للهيمنة على العالم مثل الولايات المتحدة. ومع ذلك فإن إدارة مولعة بالقتال والحرب مثل إدارة بوش من الصعب عليها أن تتخلى عن هدف الإطاحة بالنظام الإيراني الذي بات يشكل كابوساً مؤرقاً لها في منطقة الشرق الأوسط.